بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تفسير القرآن العظيم

قال الشيخ الإمام الأوحد البارع الحافظ المتقن عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبى حفص عمر بن كثير الشافعى رحمه الله تعالى ورضى عنه:

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٢-٤] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١-٥] وافتتح خلقه بالحمد فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] واختتمه بالحمد، فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] ولهذا قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] كما قال تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبا: ١] فله الحمد فى الأولى والآخرة أى فى جميع ما خلق وما هو خالق هو المحمود فى ذلك كله كما يقول المُصلِّى: اللَّهم ربنا لك الحمد مِلْءَ السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شىء بعد ولهذا يُلهَم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يلهمون النَّفَس أى يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم لِما يرون من عظيم نعمه عليهم وكمال قدرته وعظيم سلطانه وتوالى مِننه ودوام إحسانه إليهم كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٩-١٠].

والحمد لله الذى أرسل رسله ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وختمهم بالنبى الأمى العربى المكى الهادى لأوضح السُّبُل أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم وأسود وأحمر وإنس وجانّ فهو نذير له ولهذا قال تعالى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧] فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنص الله تعالى

وكما قال تعالى ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ﴾[القلم: ٤٤-٤٥] وقال رسول الله ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»[(١)] قال مجاهد يعنى الإنس والجن فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن مبلغًا لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذى ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٤٢] وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندَبهم إلى تفهمه فقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] وقال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص: ٢٩] وقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد: ٢٤].

واجب العلماء: فالواجب على العلماء الكشفُ عن معانى كلام الله وتفسيرُ ذلك وطلبه من مظانه وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[آل عمران: ١٨٧] وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٧٧] فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم وإقبالهم على الدنيا وجَمعِها واشتغالِهم بغير ما أُمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهى عما ذمهم الله تعالى به وأن نأتمر بما أُمِرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه وتفهُّمِه وتفهيمه قال الله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الحديد: ١٦-١٧] ففى ذكره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تنبيهٌ على أنه تعالى كما يُحيى الأرضَ بعد موتها كذلك يلين القلوبَ بالإيمانِ والهُدى بعد قسوتها من الذنوبِ والمعاصى والله المؤمَّلُ المسؤولُ أن يفعل بنا هذا إنه جوادٌ كريم.

أحسن طرق التفسير: فإن قال قائلٌ فما أحسنُ طُرقِ التفسير [فالجوابُ]: أن أصحَّ الطرق فى ذلك أن يُفَسَّرَ القرآن بالقرآن فما أُجمِلَ فى مكان فإنه قد فُسِّرَ فى موضعٍ آخرَ فإنْ أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له بل قد قال الإمامُ أبو عبد الله محمدُ بن إدريسَ الشافعى رحمه الله تعالى كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فَهِمَهُ من القرآن.

قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[النساء: ١٠٥] وقال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤]. وقال تعالى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النحل: ٦٤].

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إنى أوتيتُ القرآن ومِثله مَعَه»[(٢)]. يعنى السُّنة والسنة أيضا تُنزَّلُ عليهم بالوحى كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن وقد استدل الإمام الشافعى -رحمه الله تعالى- وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضعَ ذلك. والغرضُ أنك تطلب تفسير

(١) رواه مسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٤) من حديث المقدام بن معدى كرب، انظر صحيح الجامع رقم (٢٦٤٣).

القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن بِمَ تَحكُمُ؟ قال: بكتاب الله قال: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول الله قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد برأيي. قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «الحمدُ لله الذي وفَّق رسول رسول اللهِ لما يُرضي رسول الله». وهذا الحديث في المسانيد والسنن[1] بإسناد جيد كما هو مقررٌ في موضعه. وحينئذ إذا لم نجد التفسيرَ في القرآن ولا في السُّنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لِما شاهدوا من القرائنِ والأحوال التي اختُصُّوا بها ولما لهم من الفهمِ التام والعلمِ الصحيح والعمل الصالح لا سيَّما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاءِ الراشدين والأئمة المهتدين المهديين وعبد اللهِ بن مسعود رضي الله عنه.

قال الإمامُ أبو جعفرٍ محمدُ بن جرير الطبري[2]: حدثنا أبو كُرَيبٍ حدثنا جابرُ بن نوحٍ حدثنا الأعمشُ عن أبي الضُّحى عن مسروق قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ولو أعلمُ مكانَ أحدٍ أعلمَ بكتابِ اللهِ مني تنالهُ المطايا لأتيته.

وقال الأعمش أيضا عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن[3].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يَعمَلوا بما فيها من العمل فتعلَّمنا القرآن والعمل جميعا، ومنهم الحَبْرُ البحرُ عبد الله بن عباس ابن عمِّ رسول الله ﷺ وترجمانُ القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقِّهْهُ في الدين وعلِّمه التأويل»[4]. وقال ابن جرير[5] حدثنا محمد بن بشار وحدثنا وكيع حدثنا سفيان عن الأعمش عن مسلم قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: نِعْمَ ترجمانُ القرآن ابنُ عباس.

ثم رواه عن يحيى بن داود عن إسحاق الأزرق عن سفيان عن الأعمش عن مسلم بن صبيح أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس. ثم رواه عن بُنْدارَ عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك.

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٩٢)، الترمذي (١٣٢٧)، أحمد في مسنده (٢١٥٠٢) من حديث عمرو بن الحارث عن رجال من أصحاب معاذ به، قال الحافظ في التلخيص الحبير (٤/ ١٨٢): قال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بمتصل، وقال البخاري في تاريخه: الحارث بن عمرو عن أصحاب معاذ، وعنه أبو عوف لا يصح، ولا يعرف إلا بهذا وقال الدارقطني في العلل: رواه شعبة عن أبي عون هكذا، وأرسله ابن مهدي وجماعات عنه، والمرسل أصح.

(٢) صحيح: ابن جرير في تفسيره (١/ ٨٠) وأخرجه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣) من طريق الأعمش به.

(٣) صحيح: ابن جرير في تفسيره (١/ ٨٠).

(٤) صحيح: أحمد (٢٣٩٣) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وأخرجه البخاري (١٤٣) ومسلم (٢٤٧٧) بلفظ: «اللهم فقهه في الدين» ولم يقع عند مسلم: «في الدين».

(٥) صحيح: ابن جرير في تفسيره (١/ ٩٠).

فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة، وقد مات ابنُ مسعود رضى الله عنه فى سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح وعُمِّرَ بعده عبد الله بن عباس ستًا وثلاثين سنة فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟! وقال الأعمش عن أبى وائل: استخلف علىّ عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ فى خطبته سورة البقرة وفى رواية سورة النور ففسرها تفسيرا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا. ولهذا غالبُ ما يرويه إسماعيلُ بن عبد الرحمن السُّدِّى الكبير فى تفسيره عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابنِ عباسٍ، ولكن فى بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويلِ أهل الكتاب التى أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «**بلِّغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيلَ ولا حرج ومَن كَذبَ علىّ متعمِّدا فليتبوأ مقعده من النار**» رواه البخارى[1] عن عبد الله بن عمرو ولهذا كان عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يُحدِّث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن فى ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثانى: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوتٌ عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته لما تقدم وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى.

ولهذا يختلفُ علماءُ أهلِ الكتاب فى مثل هذا كثيرا ويأتى عن المفسرينَ خلاف بسبب ذلك كما يذكرون فى مثل هذا أسماءَ أصحابِ الكهف ولونَ كلبهم وعددهم وعصا موسى من أى الشجر كانت وأسماءَ الطيور التى أحياها الله لإبراهيم وتعيينَ البعض الذى ضُرِبَ به القتيلُ من البقرة ونوعَ الشجرة التى كلم الله منها موسى إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دينهم ولا دنياهم.

ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز كما قال تعالى ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾[الكهف: ٢٢] فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا فإنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ضعَّفَ القولين الأوَّلين وسكت عن الثالث فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ثم أرشدَ على أن الاطلاع على عِدتهم لا طائلَ تحته فقال فى مثل هذا ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه فلهذا قال ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب فهذا أحسنُ ما يكون فى حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام وأن تُنبِّه على الصحيح منها وتُبطلَ الباطلَ وتَذكرَ فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فتشتغل به عن الأهم.

فأما من حكى خلافًا فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقصٌ إذ قد يكونُ الصوابُ فى

(١) البخاري (٣٤٦١).

الذى تركه أو يحكى الخلافَ ويُطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضا فإن صحَّح غيرَ الصحيح عامدًا فقد تعمد الكذب أو جاهلاً فقد أخطأ وكذلك من نَصَبَ الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالاً متعددة لفظًا ويَرجعُ حاصلُها إلى قولٍ أو قولين معنى فقد ضيَّع الزمانَ وتكثَّر بما ليس بصحيح فهو كلابسِ ثوبى زُورٍ والله الموفق للصواب.

فصل: إذا لم تجدِ التفسيرَ فى القرآن ولا فى السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رَجَعَ كثيرٌ من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهدِ بن جبر فإنه كان آية فى التفسير كما قال محمد بن إسحاق حدثنا أبانُ بن صالح عن مجاهدٍ قال عرضتُ المصحفَ على ابن عباس ثلاثَ عرضاتٍ مِن فاتحته إلى خاتمته أُوقِفُه عند كلِّ آية منه وأسأله عنها.

وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا طلْقُ بن غنَّام عن عثمانَ المكى عن ابن أبى مليكة قال رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحُه قال فيقول له ابن عباس اكتب حتى سأله عن التفسير كله ولهذا كان سفيان الثورى يقول: إذا جاءك التفسيرُ عن مجاهد فحسبك به.

وكسعيد بن جبير وعِكرمة مولى ابن عباس وعطاءِ بن أبى رباح والحسنِ البصرى ومسروق بن الأجدع وسعيدِ بن المسيِّب وأبى العالية والربيع بن أنس وقتادة والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومَن بعدهم فتُذكَر أقوالُهم فى الآية فيقع فى عبارتهم تباين فى الألفاظ يحسبُها من لا علمَ عنده اختلافا فيحكيها أقوالا وليس كذلك فإنَّ منهم من يُعبِّرُ عن الشىء بلازمه أو بنظيره ومنهم من ينص على الشىء بعينه والكل بمعنى واحدٍ فى كثير من الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادى.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين فى الفروع ليست حُجَّة فكيف تكون حجة فى التفسير يعنى أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح.

أما إذا أجمعوا على الشىء فلا يُرتاب فى كونه حجة فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم ويُرجَعُ فى ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة فى ذلك.

فأما تفسيرُ القرآن بمجرد الرأى فحرامٌ لما رواه محمد بن جرير [1] - رحمه الله تعالى - حيث قال ثنا محمد بن بشار ثنا يحيى بن سعيد ثنا سفيان حدثنى عبد الأعلى -هو ابن عامر الثعلبى- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: **«من قال فى القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار»**.

وهكذا أخرجه الترمذى والنسائى [2] من طرقٍ عن سفيان الثورى به.

ورواه أبو داود عن مُسدَّدٍ عن أبى عَوانة عن عبد الأعلى به مرفوعًا.

وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

وهكذا رواه ابن جريرٍ أيضا عن يحيى بن طلحة اليربوعى عن شَريكٍ عن عبد الأعلى به مرفوعا ولكن رواه عن محمد بن حُميد عن الحكم بن بشير عن عمرو بن قيس الملائى عن عبد الأعلى عن

(١) **حسن**: ابن جرير في تفسيره (١/ ٧٧).

(٢) **حسن**: الترمذي (٢٩٥٠)، النسائي في الكبرى (٥/ ٣١) برقم (٨٠٨٥).

سعيد عن ابن عباس فوقفه وعن محمد بن حميد عن جرير عن ليث عن بكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس من قوله فالله أعلم.

وقال ابن جرير [(١)] حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبرى حدثنا حَبَّانُ بن هلال حدثنا سهيل أخو حزم ثنا أبو عمران الجَونى عن جُندَبٍ أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال فى القرآن برأيه فقد أخطأ**» وقد رَوَى هذا الحديث أبو داود والترمذى والنسائى [(٢)] من حديثِ سُهَيلِ بن أبى حزم القُطَعى.

وقال الترمذى: غريبٌ، وقد تكلم بعضُ أهل العلم فى سهيل.

وفى لفظ لهم: «من قال فى كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ» أى لأنه قد تكلف ما لا علم له به وسَلَك غير ما أُمِر به فلو أنه أصابَ المعنى فى نفسِ الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه كمن حكم بين الناس على جهل فهو فى النار وإن وافق حكمُه الصوابَ فى نفس الأمر لكن يكونُ أخفَّ جرما ممن أخطأ والله أعلم.

وهكذا سمَّى الله القَذَفة كاذبين فقال ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى فى نفس الأمر لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ولو كان أخبر بما يعلم لأنه تكلف ما لا علم له به والله أعلم.

ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرة عن أبى معمر قال: قال أبو بكرٍ الصديقُ -رضى الله عنه-: أى أرضٍ تُقِلُّنى وأى سماءٍ تُظلنى إذا قلتُ فى كتابِ الله بما لا أعلم.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: ثنا محمد بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمى أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١] فقال: أى سماءٍ تظلنى وأى أرض تقلنى إذا أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم... منقطع.

وقال أبو عُبيد أيضا: ثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١] فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأبُّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمرُ.

وقال عبدُ بن حُمَيد ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال كنا عند عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه وفى ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١] فقال فما الأبُّ ثم قال: إن هذا لَهُوَ التكلُّف فما عليك أن لا تدريه...؟

وهذا كله محمولٌ على أنهما -رضى الله عنهما- إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأبِّ وإلا فكونه نبتا من الأرض ظاهر لا يُجهل لقوله تعالى ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا﴾ الآية [عبس: ٢٧-٢٨].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن عُلَيَّة عن أيوبَ عن ابن أبى مُلَيكة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى أن يقول فيها إسناده صحيحٌ.

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبى مليكة قال سأل رجلٌ ابنَ عباس

---

(١) حسن: ابن جرير في تفسيره (١/ ٧٩).

(٢) حسن: أبو داود (٣٦٥٢)، الترمذي (٢٩٥٢)، النسائي في الكبرى (٥/ ٣١) برقم (٨٠٨٦).

عن ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فقال له ابنُ عباس فما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] فقال له الرجلُ: إنما سألتك لتحدثني فقال ابن عباس: هما يومانِ ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما فكرِه أن يقول في كتابِ اللهِ ما لا يعلم.

وقال أيضًا ابن جرير: حدثني يعقوب يعني ابنَ إبراهيم حدثنا ابن علية عن مهدي بن ميمون عن الوليد بن مسلم قال: جاء طلق بن حبيب إلى جُندَب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن فقال له: أُحرِّجُ عليكَ إن كنت مسلما لما قُمتَ عني أو قال: أن تجالسني.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: إنَّا لا نقولُ في القرآن شيئا، وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في المعلومِ من القرآن.

وقال شعبة عن عمرو بن مُرة قال: سألَ رجلٌ سعيدَ بن المسيِّب عن آية من القرآن فقال: لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء يعني عكرمة.

وقال ابن شوذب: حدثني يزيد بن أبي يزيدَ قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام وكان أعلمَ الناس فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع وقال ابن جرير حدثني أحمدُ بن عبدة الضبي حدثنا حمَّادُ بن زيد حدثنا عبيد الله بن عمرَ قال: لقد أدركت فقهاءَ المدينة وإنهم ليُعظِمونَ القولَ في التفسير منهم: سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافعٌ.

وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن عروة قال ما سمعتُ أبي يؤول آية من كتاب الله قط.

وقال أيوب وابن عون وهشام الدَّسْتوائي عن محمد بن سيرينَ: سألتُ عبيدة يعني السلماني عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن فاتقِ الله وعليك بالسداد.

وقال أبو عبيد: حدثنا معاذٌ عن ابن عون عن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال: إذا حدثت عن الله حديثا فقف حتى تنظرَ ما قبله وما بعده. حدثنا هُشَيْمٌ عن مغيرة عن إبراهيمَ قال: كان أصحابنا يتَّقونَ التفسيرَ ويهابونه وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألتُ عنها ولكنها الرواية عن الله عز وجل. وقال أبو عبيد: حدثنا هشيمٌ حدثنا عمر بن أبي زائدة عن الشعبي عن مسروقٍ قال: اتقوا التفسيرَ فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثارُ الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السَّلف محمولة على تحرُّجِهم عن الكلامِ في التفسير بما لا عِلْمَ لهم به فأمَّا من تكلَّم بما يَعلمُ من ذلك لغة وشرعًا فلا حَرَجَ عليه ولهذا رُوي عن هؤلاء وغيرهم أقوالٌ في التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما عَلِموه وسكتوا عما جهلوه وهذا هو الواجب على كل أحدٍ فإنه كما يجب السكوتُ عما لا علم له به فكذلك يجبُ القولُ فيما سئل عنه مما يعلَمُه لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولِما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سُئل عن علمٍ فكَتَمَه أُلجِمَ يومَ القيامة بلجامٍ من نارٍ»[1].

(١) صحيح: أبو داود (٣٦٥٨)، الترمذي (٢٦٤٩)، ابن ماجه (٢٦٦)، أحمد (٧٥١٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فأما الحديثُ الذى رواه أبو جعفرِ بن جرير [١] : حدثنا عباسُ بن عبد العظيم حدثنا محمد بن خالد بن عَثمة حدثنا جعفر بن محمد الزبيرى حدثنى هشامُ بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت ما كان النبى ﷺ يفسِّر شيئًا من القرآن إلا آيًا بعدد علَّمهُنَّ إياه جبريلُ عليه السلام .

ثم رواه عن أبى بكر محمد بن يزيد الطرسوسى عن معن بن عيسى عن جعفر بن خالدٍ عن هشام به فإنه حديثٌ منكر غريبٌ وجعفرٌ هذا هو ابن محمدِ بن خالد بن الزبير بن العوام القرشى الزبيرى قال البخارى : لا يُتابَعُ فى حديثه وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى : منكر الحديث وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصِلُهُ أنَّ هذه الآيات مما لا يُعلَم إلا بالتوقيف عن الله تعالى مما وقفه عليها جبرائيل .

وهذا تأويلٌ صحيح لو صحَّ الحديث فإنَّ من القرآن ما استأثرَ الله تعالى بعلمه ومنه ما يعلمُه العلماء ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ومنه ما لا يُعذَرُ أحدٌ فى جهله كما صرَّحَ بذلك ابن عباس فيما قال ابن جرير .

حدثنا محمد بن بشار حدثنا مُؤَمَّل حدثنا سفيان عن أبى الزناد قال : قال ابن عباس : التفسير على أربعة أوجُهٍ : وجهٍ تعرفه العربُ من كلامها وتفسيرٍ لا يُعذَرُ أحدٌ بجهالته وتفسيرٍ يعلمُه العلماءُ وتفسيرٍ لا يعلمه إلا الله .

قال ابن جرير [٢] : وقد رُوى نحوه فى حديثٍ فى إسناده نظرٌ : حدثنى يونس بن عبد الأعلى الصدفى أنبأنا ابن وهب قال سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبى عن أبى صالح مولى أم هانئ عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : **«أُنزِلَ القرآن على أربعة أحرف حلالٍ وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به وتفسيرٍ تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابَهٍ لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ ومن ادَّعى عِلْمَه سوى اللهِ فهو كاذبٌ»** والنظرُ الذى أشار إليه فى إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبى فإنه متروكُ الحديث لكن قد يكون إنما وَهِمَ فى رفعه ولعله من كلام ابن عباس كما تقدم والله أعلم بالصواب .

مقدمة مفيدة تذكر فى أول التفسير قبل الفاتحة

قال أبو بكر بن الأنبارى : حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى حدثنا الحجاج بن منهال حدثنا همام عن قتادة قال : نزل فى المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ إلى رأس العشر و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ و﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء السور نزلت بالمدينة وسائر السور بمكة .

فأما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال : فمنهم من لم يزد على ذلك ومنهم من قال : ومائتا آية وأربع آيات وقيل : وأربع عشرة آية وقيل : ومائتان وتسع عشرة آية ، وقيل : ومائتان وخمس وعشرون آية أو ست وعشرون آية وقيل : ومائتان وست وثلاثون حكى ذلك أبو عمرو الدانى فى كتابه البيان .

---

(١) ضعيف : ابن جرير في تفسيره (١/ ٧٦) . (٢) ضعيف : ابن جرير في تفسيره (١/ ٧٦) .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان عن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة.

وأما حروفه فقال عبد الله بن كثير عن مجاهد: هذا ما أحصيناه من القرآن وهو ثلاثمائة ألف حرف وواحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا.

وقال الفضل عن عطاء بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا.

وقال سلام أبو محمد الحمانى: إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال: أخبرونى عن القرآن كله كم حرف هو؟ قال: فحسبنا فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف وأربعون ألف وسبعمائة وأربعون حرفا.

قال فأخبرونى عن نصفه فإذا هو إلى الفاء من قوله فى الكهف ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة والثانى على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء والثالث إلى آخره.

وسبعه الأول إلى الدال من قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٥] والسبع الثانى إلى التاء فى قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿حَبِطَتْ﴾ والثالث إلى الألف الثانية من قوله تعالى فى الرعد ﴿أُكُلُهَا﴾ والرابع إلى الألف فى الحج من قوله ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ والخامس إلى الهاء من قوله فى الأحزاب ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ والسادس إلى الواو من قوله تعالى فى الفتح ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ والسابع إلى آخر القرآن.

قال سلام أبو محمد: علمنا ذلك فى أربعة أشهر قالوا: وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربع القرآن فالأول إلى آخر الأنعام والثانى إلى ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ من سورة الكهف والثالث إلى آخر الزمر والرابع إلى آخر القرآن. وقد حكى الشيخ أبو عمرو الدانى فى كتابه (البيان) خلافا فى هذا كله فالله أعلم.

وأما (التحزيب والتجزئة) فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما فى الربعات بالمدارس وغيرها وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد فى تحزيب الصحابة للقرآن والحديث فى مسند الإمام أحمد وسنن أبى داود وابن ماجه [1] وغيرهم عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ فى حياته كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلث وخمس وسبع وتسع وأحد عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل حتى تختم.

معنى السورة

فصل: واختلف فى معنى السورة مما هى مشتقة فقيل: من الإبانة والارتفاع قال النابغة

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

فكأن القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة وقيل: لشرفها وارتفاعها كَسُورِ البلدان وقيل سُميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءا منه مأخوذٌ من أسآر الإناء وهو البقية وعلى هذا فيكون أصلها مهموزا وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واوًا لانضمام ما قبلها.

وقيل: لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة.

---

(١) صحيح: أحمد (١٥٧٣٣) أبو داود (١٣٩٣)، وابن ماجه (١٣٤٥).

قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما يُسمَّى سور البلد لإحاطته بمنازله ودوره. وجمع السورة سُوَر بفتح الواو وقد يجمع على سِوارات وسُوارات.

وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذى قبلها عن الذى بعدها وانفصالها: أى هى باثنة عن أختها ومنفردة قال الله تعالى ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾[البقرة: ٢٤٨] وقال النابغة:

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

وقيل: لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه كما يقال خرج القوم بآياتهم أى بجماعاتهم قال الشاعر:

خرجنا من النقبين لا حى مثلنا بآيتنا نزجى اللقاح المطافلا

وقيل سميت آية لأنها عَجَبٌ يعجز البشر عن التكلم بمثلها.

قال سيبويه: وأصلها أيَيَة مثل أكمة وشجرة تحركت الياءُ وانفتحَ ما قَبْلَها فقُلبت ألِفا فصارت آية بهمزة بعدها مَدَّة.

وقال الكسائى: أصلها آيِية على وزن آمنة فقُلبت ألِفا ثم حُذفت لالتباسها وقال الفرَّاء أصلها أيية فقلبت ألفا كراهية التشديد فصارت آية وجمعها آى وآياى وآيات وأما الكلمة فهى اللفظة الواحدة وقد تكون على حرفين مثل ما ولا ونحو ذلك وقد تكون أكثر وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور: ٥٥] و﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾[هود: ٢٨] و ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾[الحجر: ٢٢] وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل (والفجر) (والضحى) (والعصر) وكذلك (الم) و (طه) و (يس) و (حم) فى قول الكوفيين و ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾[الشورى: ١-٢] عندهم كلمتان وغيرهم لا يسمى هذه آيات بل يقول هذه فواتح السور.

وقال أبو عمرو الدانى: لا أعلم كلمة هى وحدها آية إلا قوله تعالى ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ بسورة الرحمن.

فصل: قال القرطبى أجمعوا على أنه ليس فى القرآن شىء من التراكيب الأعجمية وأجمعوا أن فيه أعلاما من الأعجمية كإبراهيم ونوح ولوط واختلفوا هل فيه شىء من غير ذلك بالأعجمية فأنكر ذلك الباقلانى والطبرى وقالا: ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات.